﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ربْـطُ جـدال أهـلِ الـكـفـر واسـتـهـزائـهـم بـظـلـمِ المـرءِ نفسَهُ بالجحودِ والكنود

لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار جدالَهم بالباطلِ واستهزاءَهم، وكان حالهم في جدالِهم حالَ مَنْ جاءه الهدى، فأعرض عنه؛ فكانوا بذلك أظلمَ الظّالمين؛ وصفهم بما يوجب الخزي والخذلان، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا بَيَّنَ حالَهُم مِنْ مُجادَلَةِ الرُّسُلِ لسوءِ نيَّةٍ، ومِن استهزائِهم بالإنْذارِ، وعَرَّضَ بحَماقَتِهم؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بأَنَّهُ أَشَدُّ الظُّلْمِ؛ ذَلِك لأَنَّهُ ظُلْمُ المَرْءِ نَفْسَهُ، وهوَ أَعْجَبُ الظُّلْمِ، فالَّذينَ ذُكِّروا ما هُم في غَفْلَةٍ عَنْهُ تَذْكيرًا بواسِطَةِ آياتِ الله، فأعرضوا عَنِ التَّأَمُّلِ فيها مَعَ أَنَّها تُنْذِرُهُم بسوءِ العاقِبَةِ، وشَأْنُ العاقِلِ - إذا سَمِعَ مِثْلَ ذَلِكَ - أَنْ يَتَأَهَّبَ للتَّأَمُّلِ وأَخْذِ الحَذَرِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُكِّرَ﴾: الذِّكر خلافُ النِّسيان، وهو هيئةٌ للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفة باعتبار استحضارِه، والذِّكر يُستعملُ بقصدِ ذِكْر اللِّسان أو اللِّسان والقلب كما في ذِكْر الله تعالى، ويُستعمل بمعنى الذِّكْر عن نسيانٍ، أو لإدامة الحفظ وعدم النِّسيان، والتَّذكرة ما يُتذكَّر به الشَّيء، وكثير من صيغ (التَّذكير)

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476، والبقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 354.

و(التَّذكُّر) تصلح لما هو ضدُّ النِّسيان ولمعنى الوعظ، وهو منه؛ لأنَّه إذا تذكَّر قد يزدجر[1]، ومعنى ﴿ذُكِّرَ﴾ في الآية: وُعظ.

2) ﴿فَأَعْرَضَ﴾: (عرض) أصل يدلّ على اتِّساع ما يواجه النّاظرَ من الشَّيءِ الكثيف بحيث يكون مُنتصِبًا مانعًا، فمن ذلك العارضُ، وهو السَّحابُ، وعُرْض الشَّيءِ: ناحيتُهُ، وإذا تعدّى الفعل إلى المفعول بنفسِه، فقيل: عرضتُ كذا؛ فمعناه أبرزتَهُ وأظهرتَهُ، وإذا عُدّي الفعل بـ(عَنْ)؛ فقيل: أَعْرَضَ عنّي؛ فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ، بمعنى: أنَّه انحرفَ عنه، وولّاه عُرْضه، أيْ: أخذَ جانبًا غَيْرَ الجانبِ الَّذي هوَ فيهِ، فالإعراضُ هو أَن تولّيَ الشَّيء عرضك، أَيْ: جانبك، ولا تُقبل عليه، بقصدِ عدم الالتفات إليه، ويلزمه عدم المبالاةِ به[2]، ومعنى ﴿فَأَعْرَضَ﴾: تهاوَنَ، واستخفَّ بها.

3) ﴿أَكِنَّةً﴾: الكِنُّ: ما يُحفظ فيه الشَّيء، يُقال: كَنَنْتُ الشَّيءَ كَنًّا: جعلتَه في كِنٍّ، ويدور المعنى المحوريُّ للكلمة على السَّتْر في تجوُّفٍ متينٍ يستُر أو يَحْمي، وكَنَنْتُ الشيءَ: سترتَهُ وصُنْتَه من نحو الشمس، أيْ: جعلتَهُ في كِنٍّ، وخُصَّ (كَنَنْتُ) بما يُستَرُ ببيت أو ثوب...، وغير ذلك من الأجسام، وأَكْنَنْتُ بما يُستَر في النَّفس، قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]، والأكنَّةُ: جمعُ كِنانٍ، والمعنى في الآية: جعلنا على قلوبهم أغطيةً عن أن يفهموا القرآنَ، ويعوه، فلا يصل إليها القرآنُ، ولا يفهموه، ولفظ ﴿أَكِنَّةً﴾ على المجاز.

4) ﴿يَفْقَهُوهُ﴾: (فقه) أصل يدلّ على الوصول إلى حقيقةِ باطنِ الشَّيء لاشتقاقِ اللَّفظ من الشَّقِّ والفَتْحِ، والفِقْهُ: العلمُ بالشَّيء وفهمُهُ فهمًا عميقًا مستوعبًا، والفقهُ ينصبُّ أصلًا على معاني الكلام، ويُقال: فقِهَ الكلامَ؛ كأنَّما غاصَ في داخلِه، فأدرك دقائقَهُ وخفاياه، والفقه أخصُّ من العلم؛ لأنَّه - أيِ: الفقه - بمعنى التَّوصُّل إلى علمٍ غائبٍ بعلم شاهد، ومعنى ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ في الآية الكريمة: يعلمون كُنهَهُ ومقصوده.

5) ﴿وَقْرًا﴾: (وقر) أصل يدلّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ، ومِنهُ الوَقْرُ (بفتح الواو): الثِّقَلُ في سماعِ الأُذُنِ، وقيل: الوقرُ أَن يَذْهَبَ السَّمعُ كُلُّهُ، والثِّقَلُ أَخَفُّ مِنْ ذَلِكَ، والوِقْرُ بكسر الواو: الحِملُ للحمار والبغل، ويُقالُ: نَخلَةٌ مَوَقَّرَةٌ وموقِرٌ، أَيْ: ذاتُ حَملٍ كَثيرٍ، واسْتَوْقَرَ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (ذكر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (عرض).

إذا حَمَلَ حِملًا ثَقيلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾ [الذاريات: 2]، أي: السحاب تحمل الماءَ، كما تحمل ذوات الأربع الوِقْر، ولمّا كانت الدابَّةُ التي تحمل حملًا ثقيلًا تسكنُ؛ قيل: وقَّر الدّابَّةَ؛ إذا سَكَّنَها، ومن الثقل الذاتي المادي يأتي الثقل المعنويُّ، فالوَقارُ: الحِلْمُ والرَّزانَةُ والسُّكون، ومن هنا دلَّ الوقار على العِظَم المعنوي، والتَّوْقيرُ: التَّعْظيمُ والتَّرْزينُ[1]، و﴿وَقۡرٗاۖ﴾ في الآية بمعنى: الثِّقَل في السَّمع[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أحـدَ أظلـم ممَّن ترك الحقَّ بعد علمه به، فـأعـرض ولـم يهتدِ

يخبر الله تعالى أنَّه لا أحدَ أظلم ممَّن ذُكِّرَ بآيات ربِّه ووُعِظَ بها؛ ليستدلَّ بها على سبيل الرشاد، فتَوَلَّى عنها، وتَرَكَها، ونسي ما عمل من الذُّنوب المهلكة، فلم يتُب، إنّا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يُعرضون عن آيات الله - إذا ذكِّروا بها - أغطيةً؛ لئلّا يفهموا ما ذكِّروا به منها، وفي آذانهم ثقلًا؛ لئلّا يسمعوه سماعَ انتفاعٍ، وإنْ تَدْعُ - يا مُحَمَّد - هؤلاء المُعرضين عن آيات الله عند التَّذكير بها إلى الإيمان بالله، فلن يستقيموا إذًا أبدًا على الحقِّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه؛ لأنَّ الله قد طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

وجهُ عطفِ الآية على ما قبلها:

الاشـتـراكُ في وصف أهلِ الكفر وموقفهم مِن الآيات والإيمان بها

في قوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ عُطِفت الآية على ما قبلها بالواو، وجاءَت في عقبها؛ لما بينهما من تواصُلٍ وتضامٍّ، فمِمَّا يجمعُ بينهما الحديثُ عن أهل الكفر والشِّرك، وموقفِهم من آياتِ الله ومَن جاءَهُم بها، وهو النبيُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (وقر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 52، وابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 526.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 52، والبَغَويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 210.

محمَّدٌ، ولهذا كان بينهما التوسُّطُ بين الكمالَيْن فتعاطفا، ومِن وجوه التواصُلِ بينهما: أنَّ أهل الكفر في الآية السابقة اتخذوا الآياتِ، وما أُنذروا هزوًا، وفي هذه الآية أعرضوا عن الآياتِ، وموقفُهم مِنَ الآياتِ فيهما غيرُ مُرْضٍ للعاقل، فكيف يُرضي ربَّهم ﷻ؟ وإذا كانوا في الآية السابقة يجادلون بالباطل، فهم هنا قد نسوا ما قدَّمت أيديهم، والجدالُ سابقٌ على هذا الذي هو متأخِّر عن الجدالِ، كذلك يتأخَّرُ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾، وفي هذا بيانٌ أنَّهم قومٌ لا يُرْجَى منهم إيمانٌ أبدًا، فكان هذا مقطع الحديثِ عنهم، ومُنبئًا بانتقال السّورةِ إلى حديثٍ آخَرَ، ففي الآيتَيْنِ ترقٍّ في وصفهم، فالثّانيةُ من تمام الأولى.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازي في السّياق:

لايـوجـدُ أظـلـمُ ممَّن ذُكِّر بآيات الـلـه فـأعـرض عنها

في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾، عبَّرَ عن الإنكار على إعراضِ الكافرين عن آيات ربِّهم بطريق الاستفهام المجازيِّ، ليكون أبلغَ في الإنكارِ، ليفيد وقوعَ إعراضِهم والإنكارَ عليه، والتَّعجُّبَ من إعراضِهم، وتوبيخَهم عليه، والتَّنديدَ بهم، وليفيد الكلامُ النَّفيَ وتقرير هذا النَّفي[1]، بمعنى: لا أحدَ أظلمُ ممّن ذُكِّرَ بآيات الله، فأعرض عنها[2]، ولم يَقُل ﷻ: (لا أحد أظلم...)، وإنَّما قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لأنَّ المُنْكَرَ في حالة مِن الفظاعة والشناعة بحيث كأنَّ الأصلَ والظّاهرَ فيه ألّا يوجَد، فلا يكون معروفًا معلومًا، بل كان مِن شأنه أن يُسأل عنه؛ فلهذا عُبِّر بالاستفهام مع ضميمة إفادتِه معانيَ أخرى يرشِّحُها السياقُ.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 155، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 387، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4550.

(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 196، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

براعةُ التَّعبيرِ باسم التَّفضيل في ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

تساوي المكذِّبين والمفترين على الله ورسوله في كونهم أكثرَ ظلمًا

لمّا عبَّر هنا بـ(أفعل) التَّفضيل ﴿أَظْلَمُ﴾، وكان مفهومُ (أفعل) التَّفضيل يفيد مشاركةَ طرفَيْن أو أطراف في وصف، وأنَّ أحدهما زائدٌ على الآخر في ذلك الوصف؛ كان ينبغي ألّا يتكرَّر هذا التَّعبيرُ في القرآن في الظّاهر؛ لما يُفيده الوصفُ بـ(أفعل) التَّفضيل أنَّه لا أحدَ أظلمُ من عبدٍ ذُكِّرَ بآياتِ الله، وبُيِّن له الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال، فهو أظلمُ من المُعرض الذي لم تأته آياتُ الله، ولم يُذكَّر بها، ولمّا جاء في آيات أخرى التَّعبيرُ بـ﴿أَظْلَمُ﴾ في معانٍ أخرى، يُفهم منها خلاف هذا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ [البقرة: 140]؛ كان التَّعبيرُ بـ(أفعل) التَّفضيل على معنى نفي الزّيادة في الظُّلم، فنفيُ الأفضليَّةِ لا يستلزم نفيَ المساواة، فيقتضي مساواتهم في أعظم الظُّلم وأشدِّه.

ولمّا كانت الآياتُ التي ورد فيها هذا التَّعبيرُ في سياق تكذيب آياتِ الله والافتراء على الله سبحانه وفي الكفّار عمومًا؛ أفادتِ التَّساوي في كون صاحبه قد ظَلَم ظلمًا لا أحدَ أظلمُ منه، وهو التَّكذيب بآيات الله والافتراء عليه سبحانه، وأنَّه قد صارَ في منزلةِ أعظمِ الظُّلم وأشدِّه، ويُحتمل أن يُقال: إنَّ (أفعل) التَّفضيل مقصورٌ على الموضع الذي ورد فيه على سبيل المبالغة والتَّهويل، والمعنى في الآية: لا أحدَ أظلمُ منه في مقامِ الإعراضِ عن آيات الله والاستهانةِ بها[1].

سببُ إيثارِ حذْفِ تمييز ﴿أَظْلَمُ﴾:

لا ظلمَ أعظمُ من ذنبِ الكُفرِ، فليس بعد الكفر ذنبٌ

لمّا كان الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ﴾ أن يذكر تمييزَ (أفعل) التَّفضيل مفسِّرًا الإبهام الذي فيه؛ كان في حذف التَّمييز المفسِّر للأظلميَّة إيذانٌ بالعموم، فالمعنى:

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 2/ 77 - 78، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/ 405.

ومَنْ أظلمُ كُفرًا ممَّنْ تَردُ عليه الآياتُ والبَيِّناتُ، فيُعْرِضُ عَنْها، ويَنْسَى ما قَدَّمَتْ يَداهُ[1]، وأيضًا: ومَنْ أظلم نفسًا، أيْ: لا أحدَ أظلمُ لنفسه ممَّنْ لم يتَّعظ بآياتِ ربِّه، ولم يقبلها[2]، فلمّا كفرَ؛ ظلمَ نفسَهُ، وأيضًا: ومَنْ أظلم ذنبًا ممَّن أذنبَ بإعراضه عن آياتِ الله، ونسي ما قدَّمت يداه؛ ليفيد أنَّه قد حملَ الأظلمَ في ذنبِه، ولا ذنبَ أعظمُ من ذنبِ الكفرِ، وهذا الحذفُ يُقَوِّي داعيَ التعبيرِ بالاستفهام.

بلاغةُ لازمِ فائدة الخبر في ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

ليس مَنْ آمن بالله واتَّعظ بآياتِه كمَنْ أعرض ونسي

في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يدلُّ الخبرُ بلازمِ فائدتِه على نفي المساواة عندَ اللّه تعالى بين مَنْ يؤمن بآياتِ ربِّه، ويتَّعظ بها، ومَنْ يُعرض عنها، ويَنسى ما عملَ من الذُّنوب والمعاصي، ونفيُ التسويةِ يكونُ في العملِ والجزاءِ والتقديرِ والمكانةِ عندَ اللّه ﷻ، وفي أحوالِ النفسِ والقلبِ، وما جرى في هذا الطريقِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

كلُّ مَن أعرض عن الدّين فهو مِن الظّالمين

في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، يفيد الاسمُ الموصولُ العمومَ، فلا يُراد به شخصٌ مُعيَّنٌ، ويدخل فيه المُشْرِكون من العَرَبِ - الَّذينَ ذُكِّروا بالقُرْآنِ، فأَعْرَضوا عَنْهُ - دخولًا أوَّليًّا[3].

وقد أفاد التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه في هذه الآية أنَّ الحُكمَ بالأظلميَّة مبنيٌّ على إعراضِ الكافرِ عن القرآن، ونسيان ما قدَّمت يداه، وأنَّ مَنْ يفعل هذا هو أظلمُ من كلِّ ظالم، وفيه إشعارٌ بأنَّ ظُلْمَ مَنْ يجادل في الآيات، ويتَّخذها هزوًا خارجٌ عن الحدِّ[4]، وأفاد

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 187، والنّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 299.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 354.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 230، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 286.

أنَّ هذا الظالمَ لا حُجَّةَ له ولا عذرَ له يوم القيامة في طلب النَّجاة من النّار؛ لأنَّ مضمون الصِّلة: ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قد عُرِف وعُلِم وشُهِروا به، وأفاد عظيمَ قبحه وشناعته؛ لكون مضمون الصلة: ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ كذلك.

بلاغةُ الاستعارة في ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾:

في قوله جلَّ ذِكره: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، استُعير لفظ ﴿ذُكِّرَ﴾ لمعنى التَّبليغ بقوَّةٍ، وليس لأصلِ معنى التَّبليغ فحسب؛ لأنَّ السّياق للامتنان، ومِن معاني السّياقِ التَّصريفُ المذكورُ في الآية، وسرُّ هذه الاستعارة: الإشعار بأنَّ تبليغ آياتِ الله لوضوحِه وقوَّة ظهوره كان ينبغي أن يكون حاضرًا في الأذهانِ، وأن تكون أذهانهم على ذُكرٍ بها؛ لوجوب الإيمانِ والعمل به، وفي التَّذكير معنى التَّبليغ بقوَّةٍ، وزيادة وهي معنى التَّذكيرِ، ومِن مزايا الاستعارة: الإيجازُ، فإنَّ ﴿ذُكِّرَ﴾ أوجزُ مِن (بُلِّغَ بقوَّةٍ) ونحوِ ذلك.

مِن مزايا هذا السّياق الإيجازُ، وهو أجلى في الدَّلالة والبيان

سببُ مجيءِ ﴿ذُكِّرَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

في مجيء الفعل بصيغة المبني للمفعول ﴿ذُكِّرَ﴾ إيجازٌ بحذف الفاعل، والغرض من حذفِه بيانُ أنَّ النَّظرَ إلى الحدث نفسه - وهو التَّذكير - دون الاحتياج إلى النصِّ على الفاعل - وهم الرُّسل - فالحذفُ أفاد أنَّ مناطَ الإيمان هو الآياتُ المُذَكَّرُ بها، لا المُذكِّرُ بها؛ لأنَّها من شدَّة وضوحها في نفسها بحيث تدلُّ على المطلوب؛ إذا تُلِيَت مِن أيِّ أحدٍ، فلا عذر لهم في الكفر والإعراض عنها، كما أنَّ في الحذف تكثيرًا في المعنى؛ لأنَّه لو ذُكِرَ الفاعلُ؛ لكان قُبحُ الإعراض مقصورًا على تذكير الرُّسل، فلمّا حُذِفَ الفاعل؛ أفاد العموم ليشمل كلَّ مَنْ ذُكِّرَ بآيات الله إلى يوم القيامة.

كلُّ مَنْ ذُكِّرَ بآيات الله ثمَّ أعرضَ عنها مُستقبَلًا داخلٌ في الأظلميَّة

دلالةُ التَّعبير ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ دون (بالقرآن):

الظّاهر أنَّ المُرادَ بـ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ القرآنُ؛ وذلك لمجيء الضَّمير

مفردًا في قوله: ﴿يَفۡقَهُوهُ﴾[1]، ونكتةُ التَّعبير بالآيات دون القرآنِ هو الإشعارُ بكثرةِ الآيات والحُجج التي ذُكِّرَ بها وتنوُّعها، وأنَّها علاماتٌ عظيمةٌ باهرةٌ واضحةٌ، ففيه توبيخٌ وتقريعٌ وتقريرٌ لأظلميَّته؛ لإعراضِه عن الآياتِ الكثيرة.

آيـاتُ الـقـرآن كثيرةٌ ومتنوِّعة، وتمتاز بكونها باهرةً وواضحة

بلاغةُ استعمال لفظ الآيات في السياق:

في اصطفاءِ لفظ الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ - من حيثُ هو جمعٌ لفظًا ومعنًى، دونَ التَّعبير بالقرآنِ المُفرَدِ لفظًا - دلالةٌ على أنَّهم بُلِّغوا، وذُكِّروا على جهةِ التَّفصيلِ والتكريرِ، لا على جهةِ الإجمالِ والإيجاز، وفي هذا مِن تقرير ظلمهِم الفاحش ما فيه، وهذا كلُّه يعني: أنَّ هذا الجمعَ: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ - مِن حيثُ هو جمعٌ - ناظِرٌ إلى قولِه تعالى في سياق السباق: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، وممّا يؤيِّدُ هذا: أنَّ التذكيرَ بالآياتِ في قوله تعالى: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، يعني: أنَّهم خوطِبوا بها أكثرَ مِن مرَّةٍ، وعلى أكثرَ من وجهٍ مِن وجوه النَّظْم، فيكونُ هذا التذكيرُ راجعًا إلى التَّصريف في القرآن للناس من كل مَثَلٍ.

إعـراضُ الـقـومِ عن الآيات أفضى إلى عدم الانتفاعِ بها

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾:

لمّا أُضيفتِ الآياتُ إلى عنوان الرُّبوبية؛ أفادتِ الإضافةُ قبحَ إعراضِ مَن ذُكِّر بهذه الآيات والتَّعجيب من حالِه؛ لما في لفظ (الرَّبِّ) من معنى المُنْعِم والمُحسِن والمُدبِّر له، أيْ: كيف يعرضُ عن آيات ربِّه المُحسن إليه بها بدلًا من أن يشكرَهُ بالإيمانِ به وبرسولِه الذي جاء بهذه الآيات[2]، ففي التَّعبير بلفظ الرُّبوبية إنكارٌ خفيٌّ على المُحدَّثِ عنه بعدم انتفاعِه بالآياتِ، وإعراضه عنها.

التَّعجيبُ ممَّن يُعرض عن آيات المُحسِن إليه بأنواعِ النِّعم

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 729، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 385.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 387.

دلالةُ الفاء في قولِه: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾:

المبادرةُ إلى الإعراض عن آياتِ الله حماقةٌ وقلّةُ عقلٍ

لمّا كانت الفاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب؛ فقد أفادت في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ مبادرةَ المذكورين إلى الإعراض عن آيات ربِّهم وإسراعِهم فيه دون تروٍّ أو تفكيرٍ، وأنَّهم لَم يَتْرُكوا لأَنْفُسِهم مُهْلَةَ النَّظَرِ والتَّأَمُّلِ؛ للإنباء بحماقتِهم وقلَّة عقولِهم، كما أنَّ الفاء في حُكم الدّاخلة على جملة ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ لأنَّها معطوفةٌ لتفيد الفاءُ التَّعقيب في الجملتَيْن، بمعنى أنَّهم بادروا إلى الإعراض وإلى التَّشاغل عمّا اقترفته أيديهم[1]، أيْ: إنَّهم رتَّبوا شيئًا (المعطوف) على شيء (المعطوف عليه) لا يترتَّبُ عليه في الأصلِ والظاهرِ بسرعةٍ، وهذا يعني سرعةَ رفضِهم للحقِّ وقبولِهم للباطلِ، وهذه حالةٌ عجيبة.

بلاغةُ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بين الكنايةِ والاستعارة:

ما يمنعُ مِنَ النَّظر في الآيات البيِّنات إلّا التَّعنُّتُ والعنادُ

عبَّرَ الذِّكرُ الحكيم بالإعراض عن آيات الله كنايةً عن تركِها وعدم تدبُّرها، ويفيد بلازمِه كذلك عدمَ مبالاتِه بها، ليُؤْذِن أنَّه لم يؤمن بها، فلمّا عُرضت عليه آياتُ الله، ولم يؤمن بها، ولم يكترث لها؛ استحقَّ اسم المُعرِضِ عنها، فعدَلَ إلى الكناية؛ لاقترانِ الدَّعوى بدليلِ صدقِها[2]، ففي الكناية إيجازٌ بليغ، حيث أومأَتْ إلى معنى عَرْضِ الآياتِ عليه، كأنَّه يُشاهدُها بعينَيْه، ومع ذلك انصرفَ عنها.

ويحتمل أن يكونَ الكلامُ على الاستعارة بتشبيه عدمِ انتفاعِهم بآيات الله تعالى بالإعراض عنها تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، لإيضاح المعنى وبيانِه[3]، ويستوي في عدم انتفاعِهم بها كونُهم عرفوها، ونظروا فيها، وكونُهم لم يكن منهم ذلك، والحَملُ على الكناية أبلغُ وأنسبُ بجزالةِ التنزيلِ الكريم؛ لأنَّه أوسعُ من الحَمل على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 354.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 286.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

الاستعارة؛ لأنَّ عدمَ الانتفاع حاصلٌ على القول بالكناية، والإعراضُ الحِسّيُّ قد حصَل مِن أهل الكفر، وكذلك التركُ والابتعادُ، ولكن بعد معرفة الآياتِ؛ لأنَّ هذا هو الأبرُّ بسياقِ الجدالِ في آيات الله بالباطلِ، فكيف يكونُ جدالٌ منهم في شيءٍ لم يعرفوه؟

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ و﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾:

لكلِّ كلمةٍ في القرآن مع أختها مقامٌ، ولكلِّ حرفٍ معنى دلالةٌ

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، فجاءت الفاء دالّة على التعقيب، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: 22]، فجاءت ﴿ثُمَّ﴾ [السجدة: 22] الدّالَّة على التّراخي؛ لأنَّ الكلام في آية الكهفِ في الأحياء من الكفار الذين يُستدعون إلى الهدى، فإنَّهم ذُكِّروا، فأعرضوا عقيب ما ذُكِّروا، وجاء التَّعبيرُ في السجدة على التَّراخي؛ لأنَّ الكلامَ فيها جاء في سياق وصف الكفار بعد موافاتهم يومَ القيامة، فإنَّهم ذُكِّروا مرَّةً بعد أخرى مدَّة عمرهم بآيات ربِّهم، وتطاول الأمرُ بزجرِهم ووعظِهم، ثمَّ خُتِمَ ذلك بترك القبول وبالإعراض؛ فماتوا، ولم يؤمنوا، فكان هذا قولًا يُقال فيهم عند الانتقام منهم؛ وكان للفاء مكانُها ولـ(ثمَّ) مكانها[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَنَسِىَ﴾:

أكبرُ الظُّلمِ نسيانُ الكافر ما قدَّمت يداه من أعمال الكفرِ

عطفتِ الواوُ هذه الجملةَ على جملة ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ لأنَّهما خبريَّتان لفظًا ومعنًى، ولا محلَّ لهما من الإعراب، وأفاد العطفُ بالواو التَّشريكَ في الحُكم، بمعنى أنَّ سببَ أظلميَّةِ الظّالم هو إعراضُه عن آياتِ الله، ونسيانُه ما قدَّمت يداه، وقدَّم الإعراضَ على النِّسيان للإشعار بسببيَّة المعطوف عليه للمعطوف، فمَنْ أعرض عن آيات ربِّهِ، ولم يكترثْ لها، ولم يتذكَّرْها؛ نسيَ ما قدَّمت يداه من أعمال الكفر.

(1) الإسكافي، دُرَّة التنزيل: 1/ 876، والقنّوجيّ، فتح البيان: 8/ 72.

بلاغةُ النِّسيان هنا في الكناية ثمَّ الاستعارة:

التَّصويرُ البيانيُّ منفسحٌ لأجمل المعاني

عُبِّرَ بالنِّسيان في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ كنايةً عن التَّشاغُلِ والتَّغافُلِ عَنْ كُفْرِه المُتَقَدِّم، وعدم تذكُّرِه حين يُذكَّر[1]، وبلاغةُ الاستعارةِ كامنةٌ في تصوير قوةِ إثباتِ المعنى المُستعار له في نفوسِ المُحدَّثِ عنهم.

بديعُ الطِّباق بين ﴿ذُكِّرَ﴾ وبين ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ﴾:

الأرجحيَّةُ بين الإعراض والنِّسيان جَمعٌ بين المعنى والمقصد

لمّا كان لفظُ ﴿ذُكِّرَ﴾ فيه معنى الدَّعوة إلى الإقبال إلى الآيات؛ لدلالة الآياتِ على كونِها علاماتٍ ظاهرةً واضحةً عجيبةً، فكان حقيقًا بهم أن يقابلوا التَّذكيرَ بالإقبال لا بالإعراضِ والنِّسيان، فحسُنتِ المقابلةُ بالفعلَيْن للإشعار بقُبْحِ فِعلِهم وخطأِ عملِهم، وهذا النَّوع من الطِّباق من أبرعِ فنون البديع لمجيء فعلٍ واحدٍ يدلُّ بظاهره على معنًى، وبلازمِه على معنًى آخرَ، فقابله بفعلين، وإنَّما أدَّى إلى هذا الطِّباق الرّائع تصويرُ حال المحدَّثِ عنهم، فهو نتاجُ المعنى والمقصد.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في: ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾:

أكثرُ الشَّرِّ يكون بكسبِ اليدِ

في قولِه عزَّ شأنه: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ عبَّرَ القرآنُ الكريم باليدِ عن النَّفس؛ لأنَّ المُرادَ ما قدَّمت نفسُه، فذكرَ اليدَ على طريق المجازِ المرسل؛ لأنَّها آلةٌ لعامَّة أعمالِهم الجُرميَّةِ والتَّكسُّبِ فيها، أو يكون من ذِكر الجزءِ وإرادة الكلِّ، وذكرُ اليد دون غيرِها من الأعضاء؛ لأنَّ لها مزيدَ اختصاص من بين أجزاء الجسم، فإنَّ أكثرَ الشرِّ يكون بها[2]، والحملُ على هذا المجازِ بعلاقةِ الآليَة أبلغُ وأعلى؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ لهم كسبًا قويًّا عظيمًا فيما قدَّموا لأنفسِهم مِنَ الذُّنوب والآثام، أليسوا أهلَ جدالٍ في الآيات بالباطل؟ ألم يَقُلِ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4551.

اللّهُ فيهم في السّياق القريب: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾؟ فإنَّهم يريدون تغييبَهُ بالكليَّةِ جملةً ودفعةً واحدةً.

سببُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته في ﴿مَا قَدَّمَتۡ﴾:

يُستَعْمَلُ تركيب (ما قَدَّمَتْ يَداهُ) في القُرآنِ، في العَمَل السَّيّئ، فصارَ مَثَلًا

عبَّرَ الذِّكرُ الحكيم بـ﴿مَا﴾ دون (الذي)؛ لعموم الأولى، وفي ذلك إشعارٌ بقبحِ كلِّ ما قدَّمت يداه، وقُبْحِ ذِكْرِ تفصيلِه وأنواعِه، فالزَّجرُ والتخويف بها أعظمُ، وفي مجيء صلةِ الموصول إيذانٌ بعلمِ المخاطَبين بما قدَّمت يدا الظّالم؛ لأنَّ صلةَ الموصول معلومةُ الانتساب إلى مشارٍ إليه، وأكثرُ ما يُستعملُ مثل هذا التَّركيبِ في القرآنِ في العمل السَّيئ؛ فصارَ جاريًا مَجْرَى المَثَلِ[1].

فائدةُ تأنيثِ اليَدَيْن في: ﴿قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾:

المعصيةُ حقيرةٌ ضعيفةٌ في نفسها، وإنْ قُدِّمَتْ بقوَّةٍ منهم

لَمَّا كانتِ اليدُ جزءَ الإنسانِ، فلا تتَّصفُ بذُكورة ولا بأُنوثة؛ جاز تأنيثُها وتذكيرُها، وكانت تُستعمل في لغة العرب مؤنَّثةً كثيرًا، فكان تأنيثُها هنا على الاختيارِ لغَرَضٍ بلاغيٍّ، وهو ضعفُ ما أنتجَتْهُ أيدي أهل الكُفْرِ والشِّرك في نفسه وحقارتِه وبُطلانه، وما جرى في هذا الطَّريقِ من المعنى، مع أنَّهم قدَّموا ذلك بقوَّةٍ منهم على ما يُفْهِمُهُ اصطفاءُ التَّعبيرِ باليدِ، والتَّقابلُ بينَ هذَيْنِ يبرزُ لك حقيقةَ أوَّلِ أمرِهم ومآلِه.

بلاغةُ الاستئنافِ في: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾:

لا يُعرِضُ وينسى إلّا من طبعَ اللهُ على قلبِه

جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا لتكونَ جوابًا عن سؤال سببِ إعراضِهم ونسيانِهم ما قدَّمت أيديهم مع ظهورِ الآياتِ وبيانِ حججها وأدلَّتها؛ فجاء الجوابُ في هذه الجملةِ لتفيد ﴿إِنَّا﴾ ربْطَ الجملةِ بما قبلها على معنى التَّعليل لما قبلها[2]، بمعنى: أنَّهم أعرضوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 355.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/ 730، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 230.

عن آياتِ اللّه، ونسوا ما قدَّمت أيديهم؛ لأنَّه تعالى طبعَ على قلوبهم، ويحتمل أن يكونَ التَّعليلُ لبيان سببِ مداومتِهم على الإعراض عن آياتِ اللّه وعدم الاكتراث بأعمالِهم، أيْ: إنَّهم لمّا أعرضوا عنِ الإيمان؛ طبع اللّه على قلوبِهم، فما كانت الآياتُ لتنفعَهم؛ فيكون من جزاء الإصرارِ على الكفر والتَّكذيب[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بنون العظمةِ في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾:

تجلّي عَظَمَةِ العقابِ والتَّأديبِ في جعل الأكنَّةِ على القلوب

يدلُّ سياقُ العَظَمةِ - في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ - على أنَّه ﷻ لا يدعُ شيئًا من الخير يصل إلى قلوبِ هؤلاء المُكذِّبين، وأنَّ هذا الفعلَ لا يقدر عليه إلّا الإلهُ الواحد الأحد، فلَمَّا لم يعملوا بمُقتَضَى التَّصريف المُسنَدِ إلى صيغة العظمة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من الإيمانِ؛ رأوا تلك العظمةَ في سياقِ التَّأديبِ والعقابِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾.

فائدةُ حذف حرفِ النّون في قوله: ﴿إِنَّا﴾:

الدَّلالةُ على كمال اقتدارِ الله ﷻ على الجَعْلِ المذكورِ

يجوزُ كونُ المحذوف النّونَ الثّانية مِن ﴿إِنَّا﴾، وفي كونِه نونَ: (نا) دلالةٌ على كمال اقتدارِ اللّه ﷻ على الجَعْلِ المذكورِ مِن بابِ قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: 27]، مع العلمِ بأنَّ كلَّ الأشياءِ في التعلُّق بقدرتِه على حدٍّ سواءٍ، وفي الحذف حينئذٍ مِنَ التَّرهيب ما فيه، ويجوزُ كونُ الحذفِ مطلقَ حذفٍ مِن غير تحديدٍ لأحدهما مُشاكِلًا للفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ للتَّناسُبِ بين العِلَّةِ والمعلولِ؛ إذ جملةُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾... تعليلٌ لما قبلَها، والوجهانِ لا يتعاندانِ، وقد أحدثَ الحذفُ - كائنًا ما كان المحذوفُ - تآلُفًا نغميًّا بين: ﴿إِنَّا﴾ و﴿جَعَلْنَا﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية الكريمة:

عُدِلَ عن أسلوب الغيبةِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ - بخلاف:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

أفادَ العدولُ عن الغيبة إلى التَّكلُّم انصرافَ الخالقِ عن الخَلْقِ

(بآياتنا) - إلى التَّكلُّم بصيغة نون العظمة في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ استدرارًا لأذهان المخاطَبين وتنبيهًا لهم لاستمرارِ إصغائِهم، وأفاد العدولُ عن الغيبة إلى التَّكلُّم بنونِ العظمةِ الإيذانَ بقوَّة تغليف الأكنَّةِ لقلوبِهم والطَّبع عليها، وبانصرافِ الخالقِ عن الخَلْقِ غضبًا عليهم، فلَمَّا عاقبَهُم أوّلًا، فانصرف عنهم بأسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ استدعاهُم مقامُ التَّكلُّم ليُنْصِتوا مرَّةً ثانيةً إلى الله ربِّهم، ففي إجراءِ الكلامِ على طريقة التَّكلُّم نوعُ تقريبٍ لهم وإقبالٍ عليهم ورحمةٍ بهم معَ ما هم فيه مِن حالٍ لا يُرْجَى معَها اهتداءٌ؛ ولهذا كانت صيغةُ التكلُّم تمهيدًا قويًّا لطيفًا لمجيءِ آيةِ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في لفظ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ بعد الإفرادِ:

الإفضاءُ إلى عمى البصيرة يمنعه من الهدى وإن أطلنا تذكيره

لمّا كان الاسمُ الموصول (مَنْ) مُفرَدًا في لفظِه وجمعًا في معناه؛ لأنَّه لا يُقصَدُ به شخصٌ معيَّنٌ؛ حُمِلَ إفرادُ الضَّمير في: ﴿ذُكِّرَ﴾ و﴿رَبِّهِۦ﴾، و﴿فَأَعْرَضَ﴾، و﴿وَنَسِىَ﴾، و﴿يَدَاهُ﴾ على لفظ (مَنْ)؛ لأنَّ التَّعبيرَ بصيغة الإفراد إيذانٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ من المشركين والمكذِّبين في مكَّة في وقت نزول القرآن قد ذُكِّرَ بآيات ربِّه، فليس لأحدٍ حجَّةٌ في الإعراض والنِّسيان، وهذا ألصقُ بسياقِ إثباتِ الظُّلم البالغ لهم، والحكم عليهم به بالتحقيق والقطع مع التَّعجيبِ منه، وإنكارِه وتفظيعِه، وحُمل على جمعِه في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، و﴿ءَاذَانِهِمْ﴾، و﴿تَدْعُهُمْ﴾، و﴿يَهْتَدُوٓا۟﴾ على معناه[1] رجوعًا إلى أسلوب الجمعِ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى﴾، ولأنَّه أنصُّ على ذمِّ كلِّ واحدٍ ممَّن ذُكِّر، فأعرض عن آيات ربِّه، ونسي ما قدَّمت يداه[2]، ولأنَّ الجمعَ ألصقُ بصيغة العظمة في:

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 730.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 483، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 387.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾، فالقدرة على إعماءِ البصر والبصيرة مع الجماعة أعلى منها مع الواحد.

دلالةُ الفعلِ ﴿جَعَلْنَا﴾:

اختلافُ المعنى لاختلاف دلالةِ الفعل

يحتمل الفعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ أن يكونَ بمعنى: (أنشأنا)، أو (خلقنا)، فيكون ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ و﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حالًا قُدِّم للاهتمامِ وللتَّخصيص، بمعنى: جعلنا الأكنَّةَ على قلوبِهم، وليس على قلوب غيرِهم، وجعلنا الوقرَ في آذانِهم، وليس في آذانِ غيرِهم، وفي التَّقديم معنى التأكيد كذلك، ويحتمل أن يكون الفعلُ بمعنى: (صيَّرنا)، فيكون ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ و﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ في موضعِ المفعولِ الثاني، وقُدِّمَ للاهتمام وللتَّخصيص كذلك.

فائدةُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

إفادةُ تمكُّنِ الأكِنَّة من قلوبِ الكفّار، فلا يفقهون ولا يهتدون

التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ - في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ - أفاد تمكُّنَ الأغطية من قلوبِ الكفّار المعاندين واستعلاءَها، فلا يستطيعون إزالتَها ولا دفعَها، فصارت الأَكِنَّةُ حجابًا قويًّا على قلوبهم، فلا يصلُ إليها نفعُ الآياتِ، مهما كانت واضحةً بيِّنةً.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَكِنَّةً﴾:

وجودُ الأكِنَّةِ على القلوب حجابٌ عن الفقه والسَّمعِ والهداية

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أفاد التَّنكيرُ - في نور سياق صيغة التعظيم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ - تعظيمَ الأكنَّةِ وتفخيمها وتكثيرها، أيْ: هي أكنَّةٌ عظيمة كثيرةٌ ساترة غلَّفت قلوبَهم لئلّا يفقهوا القرآن الكريم، وينتفعوا منه، وذلك جزاءٌ لكفرِهم وعنادهم وأعمالِهم القبيحة.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿أَكِنَّةً﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، بتشبيه الموانعِ من الإيمانِ بالأغطيةِ الحاجبةِ لقلوبِهم عن التَّأثُّر

بالقرآن والإيمان به، فهي لا تعي شيئًا من آياتِ القرآن، "وَذَلِكَ لما يَتَغَشّاها مِنْ خِذْلانِ اللّه إيّاهُم عَنْ فهْمِ ما يُتْلَى عليْهِم"[1]، ويحتمل أن يكونَ بالاستعارة التَّمثيليَّة على ما سيأتي.

إذا انطمسَ القلبُ لا تنفعُهُ موعظةٌ، ولا يجديه تذكيرٌ

بلاغةُ حذفِ (من) قبل جملةِ ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾:

لمّا كان قولُهُ: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مُتعلِّقًا بالفعل ﴿جَعَلْنَا﴾؛ كان المعنى على تقدير: (جعلنا على قلوبِهم أكنَّةً كراهة أن يفقهوه)، أو (لئلّا يفقهوه)، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّ الكِنَّ إنَّما جُعِلَ على القلب لئلّا يفقهوه، ويحتمل أن يكون التَّقديرُ: (من أن يفقهوه)؛ لتَضْمين ﴿أَكِنَّةً﴾ مَعْنَى الحائِلِ أَوِ المانِعِ، وحَذفُ حرف الجرِّ (مِنْ) في مثل هذا السّياق كثيرٌ[2].

بيانُ أثرِ المحذوف في توجيه الإعرابِ والدَّلالة

غرضُ تعدّي ﴿جَعَلْنَا﴾ في سياق الآية:

وفي تعدِّي الجَعْلِ إليه مِن غيرِ واسطةِ مضافٍ أو حرفِ معنًى مشاكلةٌ للإعراضِ السَّريعِ عن الآياتِ المفهومِ مِن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، وإذا كانت جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾...، تعليلًا لما قبلها؛ كان المعنى الَّذي جرت فيه الفاءُ مُؤسَّسًا على معنى هذه الجملة التَّعليليَّة، وهذا التَّعَدِّي يدلُّ على عظيم تسبُّبِ تلك الأكنَّةِ في غيابِ فقه الآياتِ؛ فلهذا أعرضوا بسرعةٍ، وإنَّما كان هذا التَّعَدِّي؛ لأنَّهم بالغوا في الاستهزاء بآيات اللّه وما أُنْذِروا، على ما يفهمه التَّعبيرُ بالمصدر في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾.

ملمحُ جعلِ الأكنَّةِ على القلوب سببٌ في غيابِ فقه الآياتِ

دلالةُ المصدر المؤوَّل ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّل أنَّ اللّه تعالى جعل على قلوبِهم أكنَّةً وفي آذانِهم وقرًا كراهةَ أن يفقهوا القرآن، من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخر مصاحبٍ له، فلا ينظر إلى تقييد المصدر بقلَّةٍ ولا كثرةٍ،

حثُّ المؤمنين على فقه القرآنِ والانتفاعِ به

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 14/ 609.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 307، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 516.

ففي التَّعبير بالمصدر المُؤوَّل تحصينٌ للكلام من الإشكال في الفهم بأن يتوهَّمَ تقييد المصدر بقيدٍ ما، وتخليصٌ له من شوائب الإجمالِ في الوصفِ؛ لأنَّ المصدرَ المُؤوَّل لا يأتي معه وصفٌ أصلًا، وفيه أنَّ مَنْ فقِهَ القرآنَ، وانتفع به؛ فهو من أهل الإيمانِ والهدى على الجملة، وإذا كانت الأَكِنَّةُ سببًا عظيمًا في الإبعاد بينهم وبين فقه الآيات؛ كان المضارع مُصوِّرًا ذلك، فكأنَّهم كلَّما جدَّدوا سبيلًا لهذا الفِقْهِ؛ منعتهم الأكِنَّةُ، فالمضارعُ تفصيلٌ وتحقيقٌ لدلالةِ تعدّي الجَعْلِ إلى المصدر المُؤوَّل من غير واسطة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّمير المفرد المذَّكر في ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾:

مـــرادُ الـلـه أن يُـفـقَـهَ الـقـرآنُ لـيـنـتـفـعَ بـه الإنسانُ

في كون الضَّميرِ مفردًا راجعًا إلى القرآن يُشعر بأهميَّة أن يُفقَهَ القرآنُ كلُّه، والتَّنبيهُ إلى أنَّ مَن طبعَ اللّه على قلوبِهم لا يفقهون أيَّ آيةٍ من القرآن؛ لأنَّ القرآن وحدةٌ واحدةٌ من حيث المجموعُ.

وإذا كان الضَّمير عائدًا على لفظِ ﴿بِـَٔايَـٰتِ﴾ - وهو جمعٌ - دلَّ على أنَّ المرادَ من الآيات آياتُ القرآن[1]، فيكون الضَّمير عائدًا على المعنى الَّذي يجمع الآياتِ، وهو القرآنُ، ونكتة العدول إلى ضمير المفرد هي الإشعارُ بأهميَّة أن يُفقَهَ القرآنُ كلُّه، والتَّنبيهُ إلى أنَّ مَنْ طبعَ اللّه على قلوبِهم لا يفقهون أيَّ آيةٍ من القرآن؛ لأنَّ القرآن وحدةٌ واحدةٌ من حيثُ المجموعُ.

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ و﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾:

مـنـاسـبـةُ كـلِّ لفظٍ في القرآن لسياقِه ومقامِه مفيدٌ في الإبانة عن المراد

قال اللّه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، ومثلُها تمامًا في الإسراء [الآية 46]، وفي سورة الكهف: ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ فقُيِّدَ الفعل في هذه الآياتِ بـ﴿عَلَىٰ﴾، وقال في سورة فُصِّلت: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729.

﴿تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فُصِّلت: 5]، فقُيِّدَ الفعلُ بـ﴿فِيٓ﴾ [فُصِّلت: 5]، وتوجيهُهُ: أنَّه لمّا كان الأمرُ بطريق الجَعْل، وكان جَعْلُ الأكنَّةِ منسوبًا إلى الله تعالى في سورة الأنعام والإسراء والكهف؛ كان معنى الاستعلاء والقهر وقوَّة التَّغطيةِ أنسبَ؛ لأنَّه يُفيد أنَّه تعالى لا يَدَعُ شيئًا مِنَ الخير يصل إليها - كما تقدَّم - فجاء بـ﴿عَلَىٰ﴾.

ولمّا كان ما في سورة فصِّلت حكايةً عن مقالهم - وليس هو في قوَّة جعل الله تعالى - كان معنى الاحتواء أقربَ، فجاء بـ﴿فِيٓ﴾ [فُصِّلت: 5]، كما أنَّ الَّذي في سورة فصِّلت جاء على نمط واحدٍ في جعل القلوب والآذان مستقرَّ الأكنَّةِ والوقر[1]، قال البقاعيُّ: "ولمَّا كان السّياقُ في (الكهف) للعظمة؛ كان الأنسبُ له أداةَ الاستعلاء، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾، وعبَّروا هنا بالظَّرف إبعادًا لأنْ يسمعوا"[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾:

استماعُ الحقِّ للقرآن يكون بالانتفاعِ بآياتِه والتَّأثُّر بها

عبَّرَ الذِّكرُ الحكيم عن عدم تأثُّر الكافرين عندَ سماع القرآنِ بقولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾، وهو على تقدير: وجعلنا في آذانِهم وقرًا على طريقةِ الاستعارة التَّمثيليَّة المركَّبة؛ لأنَّ الكفرةَ يسمعون الآيات سماعًا تامًّا، ولكن لمّا كان ذلك لا يؤثِّر فيهم إلّا كما يؤثِّر في الَّذي في أذنِه وقْرٌ، فلا يسمع؛ شُبِّهوا به، ونكتةُ التَّعبير بالاستعارة توبيخُهم على عدم تأثُّرهم وانتفاعِهم بالقرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ استماعَ القرآن حقَّ استماعه يكون بالانتفاعِ بآياتِه والتَّأثُّر بها[3]، ويُحتمل أن يكون قد شُبِّهت حالهم في الإعراض عن الحقِّ بحال مَن وضع على قلبه حُجبًا تمنعُ الهدى أن يصلَ إليها، وحال مَنْ وضع على أذنه ثقلًا، فلا يسمعه، وجرى ذلك مجرى الأمثالِ في القرآن الكريم[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 349.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 551.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 524.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4551.

مناسبةُ تقديم (القلوب) على (الآذان):

تقديمُ الأهمِّ والأولى بالعناية في الذِّكر والكلام من فصيح البيان

قُدِّم ذِكرُ جعل الأكنَّةِ على القلوب في قوله ﷻ: ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ على قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ لأنَّ القلبَ محلُّ الفهم، والأُذنَ آلةٌ له، فقوي انسدادُ طريقِ فهمِ القرآنِ عليهم، فقدَّم الأهمَّ والأَوْلَى بالعناية[1] مِن هذه الجهةِ.

نكتةُ جمعِ (الأكنَّة) وإفرادِ (الوَقْر):

القلبُ محلُّ الفهمِ، والأُذن آلةٌ لتوصيلِ البَلاغ إليه

لمّا كانت القلوبُ محلَّ الفهم؛ ناسبَ ذِكْرُ الأكنَّة بصيغة الجمع مبالغةً في الطبعِ عليها، ولمّا كانت الأُذن آلةً من آلاتِ فهْمِ القلب؛ ناسبها إفرادُ الوَقْرِ، كما أنَّ الوقرَ في الأصل مصدرٌ، والمصدرُ لا يُجمع، ولَمَّا كانت القلوبُ تتفاوتُ في قبول المعاني؛ كانت الأكنَّةُ على أقدارها، فلكلِّ قلب أكنَّتُهُ، والجمع: ﴿أَكِنَّةً﴾ يُصوِّرُ ذلك، ولَمَّا كان التفاوتُ بين الناسِ في السَّمعِ قليلًا ونادرًا بحيثُ لا يكادُ يُعْتَدُّ به؛ كانَ الثِّقلُ الكائنُ في كلِّ أذنٍ يكادُ يكونُ على مستوًى واحدٍ، وإفرادُه ﴿وَقْرًا﴾ هو المُصوِّرُ ذلك.

فائدةُ الوَصْل في قولِه: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾:

السّياقُ تأييسٌ من هدايتهم وتسليةٌ وتسرية عن نبيِّه إليهم

جملةُ الشَّرط بمنزلة النَّتيجة لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فهي متفرِّعةٌ عليها، ولَكِنَّها لَم تُعْطَفْ بالفاءِ؛ لأنَّ المَقْصودَ جَعْلُ ذَلِكَ في الإِخْبارِ المُسْتَقِلِّ[2]، لتكون بمنزلة الجملةِ المستقلَّة؛ لعمومِها وكُلِّيَّتِها، وهذا إبلاغٌ في التَّأييس من هدايتهم، وفي تسليته ﷺ والتَّسرية عنه؛ لأنَّ العطفَ بالواو يعني: أنَّهم لن يهتدوا أبدًا إذا دُعوا إلى الهُدى مِن غير أنْ يجعل اللّهُ على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وقرًا.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 356، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4551.

بلاغةُ التَّعبير بأداة الشَّرط (إنْ):

إذا كانت على قلوبِهم أكنَّةٌ وفي آذانهم وقرٌ؛ فلا معنى لدعوتِهم إلى الهدى

عُبِّرَ بـ(إنْ) في قولِه: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾ دون (إذا)؛ للإبلاغِ في بيان عدمِ انتفاعِهم بالقرآن والهُدى؛ توكيدًا لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، فإذا أنت دعوتَهم؛ فلن يستجيبوا، فإذًا دعوتك إيّاهم إلى الهدى تكونُ قليلةً، أو ينبغي أن تكون قليلةً، فلا تتحسَّر عليهم، وما أنت عليهم بمسيطرٍ، وهذا ما يُستفاد من (إن) التي الأصل فيها أن تُستعمل في الشَّرط غير المقطوعِ بوقوعه، أو المشكوك في وقوعه، ونحوِ ذلك، وهذا قريبٌ من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، وقولِه سبحانه: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: 22]، وبالجملة: فالتَّعبيرُ بـ(إنْ) هنا على أصلها، على التأويلِ السّابقِ بيانُه، ويجوز أن تكون: (إنْ) على طريقة الفرضِ، والتَّقدير: (إذا فُرِضَ أن دعوتَهم إلى الهُدى، وبمجرَّد أن تدعوهم إلى الهُدى؛ فلن يهتدوا إذًا أبدًا).

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تَدۡعُهُمۡ﴾:

إذا قست قلوبُ المدعوّين؛ لم تجد الهداية سبيلًا للتَّمكين

يفيدُ التَّعبيرُ بصيغة المضارع - في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾ - أنَّهم لن يهتدوا؛ كلَّما تكرَّر دعاؤك لهم إلى الهدى، أيْ: في كلِّ وقتٍ، وهذا إبلاغٌ في عدم انتفاعِهم بالقرآن.

نكتةُ تقييدِ الفعلِ بقولِه: ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

دعوةُ النّاس إلى الهُدى منهجُ رسولِ الله على المدى

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾؛ عُلِمَ أنَّ رسولَ الله لا يدعوهم إلّا إلى الهدى، فكان ذِكْرُ الجارِّ والمجرور في مقامِ التَّصريحِ بما علمَ ضمنًا؛ لتوبيخِ الكافرين وتقبيحِ فِعلِهم، فالتَّصريح به أبلغُ في تقرير عدم انتفاعهم بالقرآنِ؛ انسجامًا مع قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، كما أفاد ذِكْرُ القيدِ أنَّ الجزاءَ هو انتفاءُ اهتدائِهم على التَّأبيدِ.

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ في السّياق:

بيانُ الهُدى في القرآنِ وفي سنَّة سيِّد عدنان

يُحتمل أن يكون المرادُ من قوله تعالى: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ القرآنَ الكريم، فيكون متَّسقًا مع ذكرِ الآيات، ويُحتمل أن يكون المُرادُ كلَّ ما يكون هدًى ليشمل القرآنَ وهديَهُ ﷺ، وهو أشملُ وأعمُّ وأقرب إلى دلالة السّياق.

فائدةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾:

التَّعنُّت في الإعراضِ سببُ ما في القلب من أمراض

لمّا جاءتِ الفاء في جواب الشَّرط وجزائِه؛ دلَّت على أنَّهم يبادرون إلى عدم الاهتداء؛ كلَّما تجدَّدتْ دعوتُك لهم، فلا يتفكَّرون، ولا يتدبَّرون؛ بل يسارعون إلى الإعراضِ، وهذا ذمٌّ وتوبيخٌ لهم.

نكتةُ مجيء الجزاءِ بصيغة ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾:

اليأسُ من إيمان قومٍ لا يستدعي تَرْكَ دعوتِهم إلى الهدى

جيء بالفعل ﴿يَهۡتَدُوٓاْ﴾ الدّالِّ بصيغتِه على قَبولِ اكتساب الهدايةِ؛ ليفيد نفيه بـ﴿فَلَن﴾ المبالغةَ في اليأس من اهتدائِهم؛ لأنَّ النَّفي بها أقوى ما يكونُ؛ لكونِه في المستقبل، وزادَه مبالغةً تأكيدُهُ بـ﴿أَبَدًا﴾ كما يأتي، واليأسُ من إيمان قوم لا يستدعي ترْكَ الدَّعوةِ إلى الهدى وإنَّما يوجبُ دعوةَ غيرهم، والاستمساكَ بمَنْ آمنوا، واهتدوا.

بديعُ جناس الاشتقاقِ في: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾، ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾:

بيانُ توبيخِ من صُدَّ قلبُهُ عن الهدى، فعاند وما اهتدى

أفاد جِناسُ الاشتقاقِ التَّنبيهَ إلى أنَّهم لم يهتدوا بالهدى الذي تدعوهم إليه، فاكتُفي بالجِناس عن ذِكْر متعلِّق الفعل ﴿يَهۡتَدُوٓاْ﴾، ليفيدَ الإيجازَ في الكلام مع تمام المعنى، وفي هذا الجناسِ عظيمُ توبيخٍ وذمٍّ لهم؛ لأنَّ: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي دُعوا إليه مِن شأنه أن يوصِّل إلى الاهتداءِ المَنفيِّ عنهم؛ لأنَّه مصدرُ هذا الاهتداءِ، فهو واديه والبحرُ الَّذي تحلُّ فيه سفينتُهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجزاء ﴿إِذًا﴾:

لمّا كان ﴿إِذًا﴾ حرفَ جزاءٍ وجوابٍ للشرط؛ دلَّ على الإبلاغ في انتفاء اهتدائِهم بدعوة الرَّسول، بمعنى: أنَّهم جعلوا ما يجب أن

يكون سببَ وجود الاهتداء سببًا في انتفائه، أيْ: جزاء ما هم عليه من الكُفْرِ والطَّبع على القلوب والوَقْر في الآذان، هو عدم الاهتداء[1]، ودلَّ التَّعبير بالشَّرط والجزاء على سؤالٍ مطويٍّ دالٍّ على كمال عنايةِ رسولِ الله ﷺ بإسلامهم؛ فكان كأنَّه قال: ما لي لا أدعوهم إلى الهدى والقرآن؟ أو لمَ لن يهتدوا بعد أن دعوتُهم؟ فقيل: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾، أيْ: لأنَّهم على تلك الحالة من الطبع على القلوب[2].

المسارعةُ إلى الإعراضِ عن الهُدى أمارةُ الطَّبع على القلب

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَبَدًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ تقْييدُ انتفاء اهتدائِهم بالأَبَديَّةِ، للمُبالَغَةِ في انتفاءِ هدايَتِهم في المستقبل، أيْ: فلن يكون منهم اهتداءٌ أَلبتَّةَ مدَّةَ التَّكليف[3].

نفيُ الهدايةِ على التَّأبيد لا يقطع بها إلّا العليم المجيد

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعراض والتّولّي:

حقيقةُ الإعراض لفْتُ الوجه عن الشَّيء؛ لأنَّه مُشتقٌّ من العارض وهو الخَدُّ، ولأنَّ الكارِه للشَّيء يصرف وجهَهُ عنه، ويُستَعمل الإعراضُ في الالتفات عن الذَّواتِ والمعاني، فمثال الإعراضِ بالذّاتِ عن الذّات قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النّجم: 29]، ومثالُ الإعراضِ بالقلب وانصرافه عن المعنى قولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، وأمّا التَّولّي؛ فلا يُستعمل إلّا في التَّولّي عن الذَّوات والأجسام، كما هو سياق الآيات التي جاء فيها معنى (التَّولّي عن)؛ لأنَّه بمعنى الإقبالِ والاتِّجاه إلى الشَّيء، فإذا عُدّي بـ(عن)؛ كان بمعنى الانصرافِ إلى اتِّجاه الإدبار غالبًا، وما

الإعراضُ لفْتُ الوجه عن الشَّيء، والتَّولّي الصُّدود عن الذَّوات والأجسام

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 730.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 230.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 195، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 230.

جاء في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 20] هو على الأصلِ في التَّولّي عن الجسم، ويفيد بكنايتِه ترْكَ الإصغاء والائتمار، فلمّا ذكرَ الآيات في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ ناسبَ أن يذكرَ الإعراض دون التَّولّي، فقال: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[1]، وقال الكَفَويُّ: "والتَّولّي: قد يكون لحاجَةٍ تَدْعو إلى الانْصِراف مع ثُبوت العقد، والإعراض: الانْصِراف عن الشَّيْء بالقَلْب، قالَ بَعضُهم: المُعرِضُ والمُتَوَلّي يَشْتَرِكانِ في ترك السلوك، إلّا أَن المعرض أَسْوَأُ حالًا؛ لأَنَّ المُتَوَلِّي مَتى نَدم؛ سهُل عليْه الرُّجوع، والمعرضُ يحْتاج إلى طلبٍ جَديد"[2]، وعليه فإنَّ الإعراضَ يُستعملُ في الالتفات عن الذّواتِ والمعاني، بينما يكون التَّولّي عن الأشياء الماديَّة الملموسة.

الأكِنَّةُ والأغطية:

الكنُّ ما يُحفظ فيه الشَّيءُ، ويدلُّ على السَّتْر في تجوُّفٍ متينٍ يستُر، كالذي تحت الأغطية، والكِنانةُ التي هي جعبةُ الحرب غيرُ المشقوقة، فخُصَّ كَنَنْتُ بما يسترُ ببيتٍ أو ثوبٍ، وغير ذلك من الأجسام، والكِنانُ: هو الغطاء الذي يكنُّ فيه الشَّيء، وجمع كنانٍ: أَكِنَّةٌ، وأمّا الغطاءُ؛ فهو ما يُغطَّى به، ويُجعل فوق الشَّيء، فالكنان أخصُّ مِنَ الغطاء؛ لأنَّه لا يُطلق إلّا على ما يكون فيه الشَّيءُ مِنَ الأجسام ساترًا له بقوَّةٍ وحفظِ متينٍ، بحيث يُغطّيه بأكمله[3]، ولم يَرِدْ لفظُ الأَكِنَّة في القرآن إلّا جمعًا، كما لم يَرِدْ لفظُ الغطاء إلّا مفردًا.

الأَكِـنَّـةُ ما يُـحـفـظ فيها الشَّيءُ، ويُستر، والأغـطـيـة ما يُـغـطَّـى بـها، وتُـجـعـل فـوق الشَّيء

(1) الرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (عرض)، (ولي).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 28.
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (كنَّ)، (غطا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»